

حكمة الموت

إلياس بلكا *

"الموت هو الحقيقة الثابتة والفاجعة، الحقيقة التي تُورق وتحير وتزعزع ماعداها من حقائق، بما في ذلك حقيقة الحياة. فما قيمة أية حقيقة دنيوية يمحوها الموت ويذروها كما تمحو الرياح وتذرو كل نقش أو أثر على الرمال؟..." (1).

هذا مثال لصرخة الإنسان وألمه حين يقف مشدوها عاجزا أمام أم الحقائق وأخطرها: الموت. ولايجدي شيء أمام هذا القدر الغامض:

وإذا المَنية أنشبت أظفارها ألفت كل تَميمة لاتنفع (2)

حتى التفلسف الذي حاوله الأديب الوجودي "كامو" في روايته "الغريب" - للتغلب على الموت لايقنع أحدا، فالموت لايمكن تجاهله ولاتحديّه (3). وكما قال شورون: "على الرغم من أن الإنسان قد يدرك تفاهته فإن التفكير في الفناء هو أمر يصعب احتماله" (4).

حدا المشكلة في العصر الحديث

ومن الطبيعي أن يهاب الإنسان من حيث هو إنسان - الموت، ولذلك تجده أحيانا يتعلق بالحياة حتى في أشد حالات بؤسه (5). لكن وعي الناس بثقل الموت ازداد حدة في هذا العصر، خصوصا في الحضارة الغربية التي وجدت نفسها في مأزق كبير بتركيزها على القيمة اللامتناهية للكائن البشري الفرد، فلم تستطع التوفيق بين هذه الفكرة الأساسية وبين فناء الفرد الذي يبدو لها - شاملا في الموت (6).

من جذور التخوف الغربي من الموت

من أهم هذه الجذور: التصور اليوناني القديم لعالم ما بعد الموت، والذي أثر طويلا في الإنسان الغربي، برغم ظهور المسيحية وتلطيفها لهذا التصور المتشائم (7).

ومن أبرز مصادر هذا التصور في التاريخ الإغريقي: الأوديسيا، فهذه القصة الطويلة المصوغة شعرا، والتي تُنسب لهوميروس، تتضمن وصفا عاما لمصير أرواح الموتى وشكل حياتها وحركتها، وهي صورة حزينة ومرعبة ومظلمة عن العالم الآخر، حتى بالنسبة للأخيار من الموتى.

والجدير بالذكر أن هذه الصورة كانت سائدة قبل ذلك في الشعوب الشرقية، خصوصا بمصر وبلاد الرافدين (8).

وأفلاطون نموذج لهذا القلق من الموت، لذا بحث كثيرا مسألة بقاء الروح، وقدم

أسطورة عن عالم ما بعد الموت مستلهمة من الأوديسيا، كما تناول موضوع الموت بصفة عامة(9).

وغير هذا توجد أسباب أخرى في الخوف من الموت يشترك فيها أكثر الناس، وقد لخصها ابن مسكويه في هذا النص:

كلام الفيلسوف ابن مسكويه حول الموت

قال: "إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدري الموت على الحقيقة، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه، فقد انحلت ذاته، وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور، وأن العالم سيبقى موجودا، وليس هو بموجود فيه، كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد. أو لأنه يظن أن للموت ألما عظيما، غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه، وكانت سبب حلوه. أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت. أو لأنه متحير لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات. وهذه كلها ظنون باطلة لاحقيقة لها"(10).

قصور العلم عن كشف لغز "ما بعد الموت"

ولا يستطيع العلم أن يجيب عن هذه المخاوف التي أشار إليها ابن مسكويه، مثله في ذلك مثل التفكير العقلاني المحض. ولهذا فإن علم الباراسيكولوجيا المعاصر، وهو أقرب العلوم "التجريبية" إلى هذا الموضوع- لم يقدم لنا شيئا ذا بال عن الموت وما وراءه(11). ولذلك يظل الدين مصدرنا الأساس في هذه القضايا وماشابهها، فماذا يقول لنا؟

الموت في الإس-لام

إن الموت في المذهبية الإسلامية- مجرد رحلة عابرة، وليس شيئا ثابتا أصيلا في الوجود؛ حتى وجود الإنسان في القبر هو وجود حي لاموت فيه، ومع ذلك فهو مؤقت ينتهي بالحرش والانبعاث. ولذلك يقول العلماء: الموت معناه تغير حال فقط(12). وفي الأثر: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنتقلون من دار إلى دار. قال القرطبي: "الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار"(13).

حقيقة الموت

أما حقيقة هذا التغير وماهيته فمن شؤون الغيب المستور، يقول أبو حامد الغزالي: "...نعم، لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم- أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: "الروح من أمر ربي. فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت"(14).

النوم أخو الموت

وإذا كانت الحقيقة العميقة للموت مجهولة لنا، فإن الشارع ضرب لنا مثلاً قريباً إلينا، فقال النبي الكريم: "النوم أخو الموت" (15).

ولذلك جاء في القرآن الكريم قران بين الأمرين: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (16).

نحن في المنام نخرج من إطار الزمان، أو -على الأقل- من إطار الزمان العادي، وكذا من العالم الذي نعرفه، فلا نعود نحس به، ولذلك لا يخضع الإنسان في نومه -لقوانين العقل ولا لمنطق عالم الشهادة والدنيا. فهذا يقدم لنا فكرة عن انتقالنا بالموت من حال إلى حال.

وكذلك النوم نوع موت، وطالما كان هذا النوم لغزا حار فيه العلماء لحدود الساعة؛ فسيظل الموت لغزا آخر، أكبر وأعقد.

الموت: قيامة الإنسان

وإذا كان الكون سينتهي -كما يخبرنا القرآن- بانتهاء شامل يكون إيذاناً بمرحلة جديدة في الوجود، يسميها الكتاب الكريم بـ: "الآخرة"، كما يسمي هذا الانهيار بـ "القيامة"... فإن موت الفرد بمثابة إعلان لقيامته هو، وهي قيامة خاصة تسبق يوم القيامة الكبير. ولذلك روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: الموت القيامة، فمن مات فقد قامت قيامته (17).

أول مراحل الآخرة

إن الموت -هذه القيامة الصغيرة- هو أول منازل الآخرة، كما أنه آخر مراحل الحياة الدنيا، ولذلك فهو فاصل ما بين الحياتين وحداً ما بين العالمين. فبالموت تبدأ حياة البرزخ، وهي عالم القبر، ثم البعث، فالحشر، فالحساب، وأخيراً يستقر كل واحد في الجنة أو في النار، في خلود أبدي.

ونظراً لخصوصية الموت على هذا الوجه -أعني كونه أول مراحل الحياة الأخرى- قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "ما رأيت منظرًا إلا -والقبر أفضح منه" (18). وفسّر ذلك في خبر آخر: "إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد" (19).

الدخول في عالم الغيب

ولما كان الموت تغيير حال ليس إلا، ورجوعاً إلى عالم الغيب -فإنه تتكشف للإنسان- بموته -أشياء كثيرة من المغيبات التي سُترت عن حواسه. ولذلك يقال له -كما أخبرنا القرآن-: (لقد كنت في غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك، فبصرك اليوم حديد) (20).

فالمعنى "أن البصر يحتد عند الموت فيعاين العبد جميع ماينتهي أمره إليه، وهو اليقين المشار إليه بقوله: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)"(21).

ولما كان العالم الآخر أجلاً وأكبر، فيه تتكشف للإنسان حقائق الوجود...مثل السلف الدنيا بالنوم والموت بالاستيقاظ منه، فقالوا: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"(22). وكتب رجل إلى أخ له: "أما بعد، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، والسلام"(23). وقال الغزالي في هذا المعنى أيضاً: "ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم"(24).

الموت نهاية للطغيان الآدمي

لقد خلق الله هذا العالم لأجل تحقيق حكمة الإبتلاء، فالدنيا دار امتحان واختبار.

لا- دار قرار للإنسان، لهذا إقتضت الحكمة الإلهية أن يكون لهذا الإبتلاء أمد، فينتهي بالموت، ومعه ينتهي طغيان الإنسان وتتقضي كبرياؤه الفارغة. لهذا جاء في الحديث: "الولا- ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر والمرض والموت، وإنه مع ذلك لوثاب." فهذه الأشياء -والموت أبرزها- تحدّ من أو هام الإنسان وأحلامه في العظمة والكبرياء، كما في الحديث الآخر: "إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت"(25).

ولهذا كان من وظائف "الموت" بالنسبة للأحياء من الناس: تذكيرهم بحدودهم وتنبههم على حقيقة عبوديتهم لخالقهم. وفي هذا المعنى روي: "كفى بالموت واعظاً"(26).

المذهبية الإسلامية في الموت تفأولية

ورغم ما سبق فإن روح الدين في هذا الموضوع روح متفائلة وإيجابية، ولذلك ثبت -في تاريخ البشرية الطويل- أن الإنسان ما وجد عزاء في قلقه الدفين من الموت كما وجدته في التدين. ومن خصائص عقيدة الأديان السماوية عن عالم ما بعد الموت أنها قدمت البعث كمجموعة بعوث فردية، أي أن الإنسان لا تعود روحه إلى شيء كبير تزوب فيه، مثل "العقل" لهيجل، أو "الإنسانية" لكونت، أو "روح الكون"... ونحو ذلك من التصورات الفلسفية... (27) بل الإنسان في الأديان السماوية- يعود إلى نفسه، فهو قد لا يعود بالجسد نفسه الذي كان له، لكن وعيه وذكرياته... تبقى، أي أن شخصيته المستقلة لا تنقرض. بل إن هذه الأديان -خصوصاً الإسلام- تقدم البعث بوصفها بعثاً عاماً لكل الإنسانية: الأقارب والأبناء والأصدقاء... كلهم سيبعثون على صعيد واحد. لهذا كان المستقبل الأخروي الإسلامي هو الأكثر تفأولاً- وانسجاماً مع الرغبة العميقة للإنسان في الخلود الشخصي... من كل التصورات الدينية والفلسفية الأخرى.

ولهذا لا- يكره المؤمن الموت ولا يرتعب منه، فهو يدرك أن الدنيا مرحلة عابرة، وأن موته هو خروج من عالم إلى آخر أوسع منه وأطيب، كما قال الصحابي عبد الله بن عمرو: "إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه

فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها" (28).

وقد أحسن الغزالي التعبير عن هذا المعنى حين قال: "واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأنهار والثمار والطيور، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم" (29). هذا عن المؤمن، ويظل الموت حقيقة قاسية على منكري الغيب خاصة. فتبارك الله العظيم، الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا وهو العزيز الغفور.

الهوامش:

(* أكاديمي من المغرب.

- 1- من مقال: "حول الموت والحياة"، لأحمد السطاتي. صحيفة الاتحاد الاشتراكي، عدد 27 فبراير 1997، الصفحة الأخيرة.
- 2- من قصيدة الشاعر أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه.
- 3- اقرأ رواية الأديب الفرنسي: Albert Camus: L 'étranger
- 4- الموت في الفكر الغربي، ص 82.
- 5- اقرأ تصوير لافونتين لهذه القضية في قصتين من حكاياته: "الموت والذي لا يموت"، و"الموت والحطاب"، في: 235، 36، Les Fables،
- 6- الموت في الفكر الغربي، ص 288.
- 7- راجع: النشيد الحادي عشر في: L'odyssée , p 156 à 174
- 8- اقرأ: L'Au-Delà , p 32 à 34
- 9- راجع محاوره فايدروس: خاصة صفحات: Phédon, p92 à 103. وكذلك محاوره: "في مدح سقراط"، خصوصا في الكلام عن الساعات الأخيرة قبيل موت سقراط، وهو الموت الذي أثر كثيرا في أفلاطون وغير من برنامج حياته.
- 10- نقله الشيخ القرضاوي في كتابه: "الإيمان والحياة"، ص 130.
- 11- L'Au-Delà , p 116-117, 120.
- 12- إحياء علوم الدين، 4525/
- 13- التذكرة، 1/16.

14- الإحياء، 4/526.

15- رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور، حديث رقم 484، باب قول الله - عز وجل -: (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)، عن جابر بن عبد الله وغيره بألفاظ متقاربة. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، 10/415: رواه الطبراني في الأوسط والبخاري، ورجال البزار رجال الصحيح.

16- سورة الزمر، آية 39.

17 - أخرجه ابن أبي الدنيا عن أنس في كتاب الموت - بإسناد ضعيف كما قال الحافظ العراقي في: المغني عن حمل الأسفار، 4/527. وجملة (الموت القيامة): مبتدأ وخبر، أي الموت هو القيامة.

18 - أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم من حديث عثمان بن عفان، وقال - أي الحاكم - صحيح الإسناد، بينما قال الترمذي: حسن غريب، عن المغني للعراقي، 2/229.

19 - أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجة، والحاكم وصحح إسناده، عن عثمان. عن المغني، 2/230.

20- سورة ق، 22.

21- اليواقيت والجواهر، للشعراني، 2/133.

22- ينسب هذا الكلام إلى علي بن أبي طالب، كما في: تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، لابن الديبع، ص 176. ويوجد مثله لسهل التستري، المتوفى عام 283هـ، كما في طبقات الصوفية للسلمي، ص 207.

23- عن الإحياء، 4/483.

24- الإحياء: 4/526.

25- الحديثان ذكرهما القرطبي في تفسير أول سورة الملك، 18/135.

26- قال العراقي في المغني 4/68: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة، وفيه الربيع بن بدر ضعيف. ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر. وهو معروف من قول الفضيل بن عياض، رواه البيهقي في الزهد.

27- انظر التفاصيل في: L'Au-Delà, p 104

28- أورده صاحب الإحياء، 4/527.

29- الإحياء، 4/528.

المراجع

- 1- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ت 505 هـ. ط2، 1992م. دار الكتب العلمية، بيروت.
- 2- الإيمان والحياة، ليوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة، بيروت.
- 3- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله محمد القرطبي. اعتنى به فواز أحمد زمرلي. ط4، 1995م. دار الكتاب العربي، بيروت.
- 4- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، لابن الديبع.
- 5- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد القرطبي. دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
- 6- طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي، ت 412 هـ. تحقيق نور الدين شريبة. ط3، 1986م. مطبعة المدني، ونشر مكتبة الخانجي، كلاهما بالقاهرة.
- 7- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت 807 هـ. بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر. دار الكتب العلمية، ط 1988م.
- 8- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لزين الدين عبد الرحيم العراقي، مطبوع بهامش: إحياء علوم الدين.
- 9- الموت في الفكر الغربي، لجاك شورون. ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، عدد أبريل، 1984م؛ الكويت.
- 10- اليواقيت و الجواهر في بيان عقائد الأكابر، لعبد الوهاب بن أحمد الشعراني، دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء، عن طبعة مصطفى البابي الحلبي لسنة 1959م.
- 11- جريدة الاتحاد الاشتراكي، صحيفة يومية تصدر بالمغرب، مديرها المسؤول: عبد الرحمن اليوسفي.
- 12- Grégoire, François: L'Au-Dela. Collection QSJ, 3éd, 1965.
- 13- La Fontaine, Jean: Les fables. Illustrés par Grandville. Editions Marabout, 1987.
- 14- Homère: L'odyssée. Traduit par Médéric Dufour. Editions Garnier Frères, Paris , 1959.
- 15- Platon:Phédon. Traduit par Paul Vicaire. Editions Belles Lettres-15 .1983

